مجلة العلوم العربية والإنسانية
جامعة القصيم، المجلد (٧)، العدد (٢)، ص ص ٦٩٥-٧٢٤، (ربيع ثاني ١٤٣٥هـ/ فبراير ٢٠١٤)

ثقافة الحوار مع الآخر في نماذج من الأدب الجاهليّ

د. عمر عبد الله أحمد شحادة الفجّاويّ[١]، و د. ريم فرحان عودة المعايطة[٢]
١ أستاذ مشارك، قسم اللغة العربيّة وآدابها، كلّيّة الآداب
الجامعة الهاشميّة، التّخصّص الدّقيق: الأدب الجاهليّ
٢ أستاذ مشارك، قسم العلوم الإنسانيّة، كلّيّة الهندسة التّكنولوجيّة، جامعة البلقاء التّطبيقيّة
التّخصّص الدّقيق: علم اللغة الحديث والنّحو والصّرف، المملكة الأردنّيّة الهاشميّة

ملخّص البحث. من أظهر صفات العربيّ في الجاهليّة معرفته لثقافة الحوار، فقد ألفيناه محاورًا فذًّا في الدّفاع عن حقوقه، يحاور نفسه، ويحاور الآخر، فمحاورته نفسه دالّة على تقليبه الأمور من أوجهها جميعها، ومحاورته الآخر دالّة على تقبّله لهذا الآخر، فهو زوجه الّتي يحاورها، وابنته الّتي يستمع إليها وإلى شكواها، حتّى إنّ هذا الآخر هو ناقته الّتي يحسّ بها وينطقها، كما صنع المثقّب العبديّ وعنترة.

وهذا الآخر كذلك : هو الملوك الّذين وفد إليهم، كما نرى في أدب السّفارات عند النّابغة الذّبيانيّ، وعلقمة بن عبدة، والمثقّب العبديّ، و هو التّاجر في السّوق كما عند الشّمّاخ، وهو الأشياء من حوله، كالأطلال والليل.

لقد استطاع العربيّ بالحوار أن يحاجج ويقرع الحجّة بالحجّة، فقد وصف الله تعالى في كتابه الكريم عربَ الجاهليّة بذلك، إذ قال: "بل هم قوم خصمون"، وقال: "ولتعرفنّهم في لحن القول"، وقال :"وإن يقولوا تسمع لقولهم".

وحين ننظر في آيات الكتاب العزيز، نجد عددًا كبيرًا منها تتحدّث عن الحوار وشؤونه كالمجادلة والمراء، وهذا ينبيء عقليًّا بأنّ العرب كانوا أمّة تؤمن بثقافة الحوار وثقافة الاختلاف، فقد قال تعالى :"ومن آياته خلق السّماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم"، فقد جعل الاختلاف آية من آياته في الكون، فبه تتعاضد الأفكار، وتتعدّد الأنظار، وتقوى الفِكَر وتتسامى الحجج، وما دام الأمر كذلك، فالله تعالى أنزل القرآن الكريم على العرب، وتحدّاهم به، ولا يمكن أن يتحدّاهم إلا بما يعقلون ويفهمون.

من هنا، يأتي هذا البحث ليكشف عن ثقافة الحوار وقضاياها في الأدب الجاهليّ : شعره ونثره، مستنيرًا بنصوص دالّة على ذلك، ومؤكّدًا لما جاء في القرآن الكريم، وهو يهدف في المقام الأوّل إلى إزالة التّهم عن العرب عامّة وعرب الجاهليّة خاصّة بأنّهم قوم جهلاء، إذ إنّهم أصّلوا ثقافة الحوار مع من حولهم وما حولهم، فالعرب هم الّذين وطّدوا دعائم هذه الثّقافة وأشاعوها بينهم، وجاء الإسلام ليؤكّد ذلك ويتمّمه. وما المحاورات الّتي رأيناها بين القبائل وأفرادها ورؤسائها، وما الشّورى الّتي جاء بها نبيّنا، صلّى الله عليه وسلّم، في بدر وغيرها إلا حجّتنا البالغة في الرّدّ على ترّهات المبطلين وفِرى الخرّاصين، الّذين يرمون أمّتنا بالتّطرف والتّعصّب وعدم قبول الآخر.

قيمة الحوار وضرورته

الحوار ضرورة إنسانيّة يحتاج إليها المرء في كلّ الأوقات، ولا يستطيع الاستغناء عنها ؛ لأنّه بها يتواصل مع الآخر، ويحقّق مبتغاه، ولولا الحوار، لانعدم التّواصل بين البشر، وانحطّوا في دركات السّفول ومزالق الضّياع، الّتي تنتفي معها القيم الإنسانيّة العليا، فالحوار خاصّةُ الإنسان الّتي جعلها الخالق له، حتّى ينماز من غيره من مخلوقاته، فقد" كان هذا الحوار قديمًا قدم وجود الشّعوب ذات الحضارات المتجاورة، بحيث كانت دائمًا تتبادل المعارف والخبرات والسّلع وأنماط الحياة من : سلوك وملبس ومأكل وطُرُز عمارة وأثاث، وتستعير الألفاظ والعبارات وتقاليد المجتمع، فتصبح جزءًا من مفردات لغاتها وأساليب تعبيرها وتدخل في نسيجها الاجتماعيّ، فتنمو بذلك الثّقافات وتزدهر"(٢ : ص٦٩).

وقد شاءت حكمة الله تعالى أن تختلف الشّعوب وتتكاثر الحضارات، فأفضى ذلك إلى تعدّد الأفكار،وتوالد القرائح واللغات، فلولا" تغاير الشّعوب واختلاف الحضارات، ما كان لشيء من ذلك أن يحدث، ومن أجل هذا، خلقنا الله سبحانه شعوبًا وقبائل لنتعارف، ولو شاء لجعلنا أمّة واحدة، ولكنّ حكمته عزّوجلّ اقتضت أن يخلقنا مختلفين، وأن نظلّ كذلك، ربّما من أجل هذا التّعارف والتّبادل والحوار" (٢ :ص٦٩ -٧٠).

ولا يستطيع الفرد أو الجماعة أن يعيشوا وحدهم، إذ لا بدّ لهم من التّأثير في الآخر والتّأثّر به، فما" من حضارة أو ثقافة كبيرة قد تكوّنت وتشكّلت وحدها في ناحية معزولة دون أن تتأثّر بالآخرين" (٩ : ص٤٢) .

والحوار سمة إنسانيّة دالّة على حبّ الإنسان للبقاء" فهو مظهر من مظاهر غريزة البقاء، وقد ورد في القرآن الكريم ما يمكن أن يفهم منه أنّ الحوار من مظاهر الإنسان، قال تعالى :" ولقد صرّفنا في هذا القرآن للنّاس من كلّ مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلا"، فالإنسان عندما يخاف على بقائه يلجأ إلى التّجمّع والإقدام، إن شاهد أنّ الخطر المحدق به يرفع بالكثرة والشّجاعة، أمّا إذا كان الخطر فكريًّا، فإنّه يلجأ إلى المجادلة

والمحاجّة، لهذا يلتقي الحوار مع فطرة الإنسان، والعقلاء في كلّ زمان ومكان قدّموه على غيره" (٨ : ص٦٨).

ولمّا كان لكلّ شيء آلة، فإنّ آلة الحوار حسن الاستماع والإنصات إلى الآخر ؛ لأنّ ثمرة ذلك ستكون الاستمرار والتّمكين والبقاء، إذ" لم تتمكّن أيّ حضارة أو ثقافة من البقاء والدّيمومة سوى تلك الّتي امتلكت مؤهّلات التّأثير المتبادل والحوار بما فيه من حديث أو إنصات للآخر...فالإنصات فضيلة علينا أن نتحلّى بها، وليس ذلك بالأمر السّهل، بل لا بدّ في سبيل ذلك أن يبادر الإنسان إلى امتلاك لون خاصّ من الأخلاق وتهذيب النّفس والرّياضة العقليّة" (٩ :ص ٤٢).

ومن ثمرات الحوار ظهور الحقّ، فقد تتبيّن لأحد طرفي الحوار أمور كان يجهلها؛ فيكون الحوار سبيله إلى معرفتها والاقتناع بها، ويفضي الحوار إلى اجتماع بعد فرقة، وألفة بعد بغض وعداوة، فإذا" كان سنا البرق يبدو من التقاء سحب شتّى، فإنّ سنا الحقّ يبدو من التقاء آراء شتّـى" (٢٦ :ص ١٢)

ولا يستطيع المرء أن يتخلّى عن الحوار في كلّ مراحل حياته، فهو" في جميع هذه المراحل توّاق إلى الصّحبة، ومن هنا، كانت الصّحبة المناسبة هي أفضل وسيلة للتّربية...إنّ الحوار ضروريّ أيضًا للقيام بالعمل الجماعيّ، وتحقيق عمل الفريق" (١١ :ص ١٥). وللحوار لذّة لا يدركها إلا من ذاقها، فقد سمّى الرّاغب الأصفهانيّ ذلك" هزّة المسائل" فيقول :" كان أبو حنيفة-رحمه الله-إذا أخذته هزّة المسائل يقول : أين الملوك من لذّة ما نحن فيه ؟ لو فطنوا لقاتلونا عليه" (١٣ ج ١ : ص٣٣).

ثمّ نجد أبا حيّان التّوحيديّ مولعًا بالحوار،فسمّى كتابًا له" الإمتاع والمؤانسة" (٥أ)، وكتابًا آخر له" المقابسات" (٥ب)، وقد تحدّث في الليلة الأولى من الكتاب الأوّل عن فوائد الحديث، وعن رسالة صنّفها أبو زيد في ذلك، وصفها بأنّها" لطيفة الحجم في المنظر، شريفة الفوائد في المخبر، تجمع بين أصناف ما يقتبس من العلم والحكمة والتّجربة في الأخبار والأحاديث، وقد أحصاها واستقصاها وأفاد بها" (٥ أ :ص ٢٦).

ويذكر أبو حيّان التّوحيديّ في لذّة الحوار والحديث أنّه سمع" أبا سعيد السّيرافيّ يقول : سمعت ابن السّرّاج يقول : دخلنا على ابن الرّوميّ في مرضه الّذي قضى فيه فأنشدنا قوله :

ولقد سئمت مآربي فكأنّ أطيبها خبيث
إلا الحديث فإنّه مثل اسمه أبدًا حديث (٥أ :ص ٢٧)

ويعلن أحمد صدقي الدّجاني استمتاعه بالحوار في مطلع كتابه" حوار ومطارحات" فيقول:" ما أمتع الحوار، وما أعظم جدواه وما أشدّ حاجتنا إليه، وإلى إتقانه"(١١ :ص ١١). وللحوار قيمة تربويّة، فهو" قائم على الإقناع، ولعلّ التّربية الّتي تقوم على هذا الأسلوب تكون تربية عقلانيّة"(١٦ :ص ١١٢).

الحوار واللغة

الحديث عن ضرورة الحوار يفضي إلى الحديث عن ضرورة اللغة، فهي من أهمّ أدواته" فاللغة بكلّ صيغها وأساليبها ومعانيها تشكّل وعاء الحوار، ووسيلته لتوصيل الرّسالة المطلوب توصيلها" (٢٧ :ص ١٣) وقد قال تعالى : چ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ چ (سورة إبراهيم : ٤).

وينبغي للمحاور أن يتقن لغته الأمّ ولغة الآخر، حتّى يحسن التّواصل والتّأثير،إذ إنّ" من الشّروط الأساسيّة للحوار التّمكّن من اللغة الأمّ في الحوار مع الذّات...، والتّنبّه إلى تأثير الكلمة وسحرها ومفعولها، واختبار الاستجابة، وتنويع الأسلوب...، والتّمكّن من لغة (الآخر) في الحوار معه، والإحاطة بمعرفته" (٢٧ :ص ٣٥، ٣٧-٤١).

فإذا كان الأمر كذلك مع اللغة، أيّ لغة، فما الحال حين تكون هذه اللغة شعرًا ؟! إنّ" الشّعر كان وسيبقى أرقى وأسمى درجات التّعبير في اللغة العربيّة الّتي تشكّل الهويّة الثّقافيّة المشتركة للعرب منذ مئات السّنين" (١ :ص ١٠).

لقد استطاع الشّاعر العربيّ في العصر الجاهليّ والعصور اللاحقة أن يتحدّث عن قضاياه كلّها شعرًا ؛ لأنّه أوقع في النّفوس، وأثبت في

القلوب" وإذا أخذنا بعين الاعتبار (أنّه) ترجم أحاسيس الرّؤية الإنسانيّة للبيئة الّتي عاش فيها، أدركنا حبّ العربيّ وتعلّقه بقيمة الحوار كإحدى القيم العالميّة المشتركة الّتي يستطيع الإنسان من خلالها أن يرى الوجه الآخر لأخيه الإنسان" (١ :ص ١٠).

وقد لجأ الشّاعر إلى الحوار" ليبثَّ في قصيدته الحيويّة والحياة، إذ ينزع فيه من أسلوب المتكلّم المباشر، أي من الصّوت الواحد إلى التّعبير عن صورتيْن متقابلتيْن" (٢١ : ص: ب) .

ويرى توفيق الحكيم أنّ الكاتب أو الشّاعر" حين يعبّر عن الحادثة بالحوار على لسان شخصيّاته، فإنّه لا يقصّها علينا حكاية وقعت في الماضي، ولكنّه يقيمها أمام أعيننا في الحاضر حيّة نابضة تتحرّك، فالحوار هو الحاضر، وهو ما يحدث في اللحظة الّتي نحن فيها حاضرًا أبدًا، لا يمكن أن يكون ماضيًا، حتّى نقرأ لأجيال وقرون كثيرة، فإنّ الحوار يبرز الحوادث لأشخاص حاضرين، يتكلّمون ويتحرّكون في حاضر دائم" (٧ :ص: ج) .

ولا يستطيع أيّ شاعر أن يقيم حوارًا، إذ لا بدّ له من مواصفات، فالشّاعر" المقتدر هو الّذي يلجأ إلى أسلوب الحوار؛لأنّه ليس مجرّد عبارات متبادلة بين الشّخصيّات، بل إنّ صياغته تحتاج إلى موهبة كاملة، حتّى تؤدّي كلّ شخصيّة دورها، في حدود ما يتطلّبه الموقف" (٢١ : ص: د).

وقد قامت فلسفة الإغريق على الحوار" فسقراط قضى حياته متكلّمًا...وكان حوار سقراط يهدف إلى إيقاظ الفكر، ولذا، نراه لم يحاول أبدًا أن يلقّن معرفة، وكان ينادي ما يوجد في عقل الإنسان، ويثق في أنّ هذا العقل سيلبّي النّداء" (١١ : ص١٥).

لذلك، نتبيّن أنّ أرقى وسائل الحوار هي لغة الشّعر، فقد" استطاع شعراء العالم بأساليب مختلفة، تحمل نفس المضمون الحضاريّ، والرّؤية الكونيّة، أن يضعوا أمامنا منذ القدم لوحات متتالية لوحدة كوكبنا الأرضيّ ووحدة مصير الإنسان ووجوده،...؛ لأنّ مجرّد قراءة الشّعر أو سماعه، هي دعوة للتّأمّل والحوار، وصلة مع الأطياف الشّتّى، وبهاء المخيّلة الشّعريّة أنّها تدفعك إلى البحث عن توهّج آخر" (١ :ص ٥٥-٥٦).

ويعدّ الشّعر الجاهليّ أهمّ وثيقة وصلت إلينا عن هذا العصر، وقد بثّه الشّاعر قضاياه ومشكلاته بلغة شعريّة رفيعة، وكان" أساس النّسيج الفكريّ العربيّ قبل الإسلام وبعده، قبل نضوج الحضارة العربيّة، وبعد نضوجها، لقد صاحب البدويّ الأعرابيّ في خيمته الّتي كان يتنقّل بها مع إبله ومواشيه في البوادي والقفار..." (١ :ص ٥٦).

من هنا، نقرّر أنّ الشّعر قد جاوز قيمته الفنّيّة التّقليديّة الّتي يعرفها المتخصّصون، إذ أصبح" قيمة فكريّة رسّخت مفهوم الحوار بين الإنسان والآخر"(١ :ص ٥٧). وظلّ هذا المعنى موصولا، إذ اعتمد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أسلوب المحاورة والإقناع للوصول إلى قلب الآخر وفكره، فهو" يجادلهم بالقرآن ويقارعهم بهذه الآيات المحكمات، فيبلغ منهم ويفحمهم ويضطرّهم إلى الإعياء"(٦ :ص ٥٢).

نماذج مختارة

١- الحوار مع النّفس

حفل الشّعر الجاهليّ بالحوار، إذ نجد الشّاعر يذكر الفعل" قال" واشتقاقاته ذكرًا لافتًا، فهو يحاور محبوبته حوارًا ناعمًا كما في معلّقة امرىء القيس (٤ :ص ١٧-١٩، ٢١-٢٢) ، ويحاور الليل (٤ : ص٣١-٣٢)، والأعشى يحاور معشر الشّاربين (٣ :ص ٥٩) . ولكنّنا سنقف حديثنا على الحوار الفكريّ العميق في الشّعر الجاهليّ، فالشّمّاخ بن ضرار قد هاج بينه وبين نفسه حوار داخليّ، فقد اضطرّه شظف العيش إلى أن يبيع قوسه، وجاشت نفسه ؛ لأنّه سيودّع هذه القوس النّفيسة الّتي أنفق معظم قصيدته الزّائيّة في وصفها ووصف طريقة الحصول عليها، فيقول :

فظلّ يناجي نفسَه وأميرَها أيأبى الّذي يُعطى بها أم يُجاوزُ
(٢٤ : ج٢ : ص٨٣٢)

إنّ نفس الشّمّاخ بدأت تعذله وتلومه وبرز حوار بينهما، فنفسه العاذلة اللائمة" صيغة متقدّمة من صيغ نقد الذّات، حيث يدخل الإنسان

في حوار كبير ومتعدّد الجوانب مع نفسه عندما يريد الإقدام على عمل معيّن" (٢٧ : ص ١٠٦ ، ١٥ :ص ٥٧-٦٢)، فخلجات نفس الشّمّاخ نستطيع أن نعدّها واحدة من أشكال الحوار الدّاخليّ الّذي يعمل على تصحيح المواقف والاستزادة من الخير، وهي بالتّالي صيغة من صيغ الحوار مع الذّات" (٢٧ :ص ٧٠).

وقد اشتعل الحوار الدّاخليّ بين النّابغة ونفسه حين قلاه النّعمان وغضب عليه، فلم تهنأ نفسه بالنّوم، حتّى ضرب المثل بالليالي النّابغيّة حين يُتَحدّث عن شدّة القلق الّتي تستبدّ بالمرء، فيقول :

فبتّ كأنّي ساورتني ضئيلة من الرُّقْش في أنيابها السّمُّ ناقعُ
(١٢ : ص٣٣)

لكنّ النّابغة قد أفاد من هذا الحوار المقلق، فانطلق إلى النّعمان وحاوره في اعتذاريّاته-كما سنوضّح ذلك-فكان الحوار الدّاخليّ مع ذاته ونفسه حافزًا وثّابًا للحوار مع الآخر، وهذا يثبت ما ذكرناه من أنّ المرء لا يستطيع محاورة الآخر، إن لم يستطع محاورة نفسه.

ويحاور عامر بن الطّفيل نفسه داعيًا إيّاها إلى الكفّ عن" المرح والعبث ؛ لأنّه مصمّم على مواجهة الأعداء، ولن يتوانى عن منازلتهم برغم حبّه لنفسه، واعتزازه بها" (٢١:ص ١٨٢) فيقول :

أقول لنفس لا يُجاد بمثلها أقلّي المراح إنّني غير مُقْصِر
(١٩ : ص٦٥)

ونعود إلى الشّمّاخ الّذي يناجي نفسه ويحاورها" ويشتدّ الصّراع بينهما، وتبدو

النّفس بمثابة قوّة تغالب صاحبها على اتّباع الهوى فتغلبه" (٢١ : ص١٨٣) ، فيقول :

تغالبني نفسي على تَبَع وقد جاء نفسي من هواها نذيرُها
الهوى
وأمر يرجّي النّفس ليس ويخشى عليها ضيرة مـا يَضيرُها
بضائر
وقد قلت للنّفس اللّجوج مقالَ شفيقٍ لو يعيه ضميرُها
نصيحة
فأنبأتها أنّ الحـياة وأهلــها كعاريَّةٍ أوفى بها مستـعيرُها (٢١ :ص

(٤٣٩-٤٤٠)

إنّ النّفس عند الشّاعر الجاهليّ" ذات أخرى...تقاسمه وجوده، وتؤثّر في سلوكه، وتتصارع معه...فالصّراع مع الذّات نوع من تحويل مواجهة الإنسان للغير إلى مواجهة مع النّفس" (٢٨ :ص ٨٩) .

ولنا أن ننظر في أبيات زهير في الحرب أنّها حوار جاش في نفسه، فهو يدعو إلى نبذها وإقصائها وعدم اللجوء إليها، ويفضّل السّلم والأمن ويدعو إليهما، ويرغّب في إقامة صلات الرّحم والقربى مع الآخر، وهذا دالّ على عمق النّفس الإنسانيّة عنده، فهو على علم بنتائجها وجرائرها، وينبّه على مساوئها الاقتصاديّة (١:ص ٤٧-٤٨)، فيقول :

وما الحربُ إلا ما علمتم وذقتمُ وما هو عنها بالحديث المرجَّم
متى تبــعثوها تبعثوها ذميمة وتضرَ إذا ضرّيتموها فتَضرَم
فتعركْكُمُ عرَكْ الرَّحى بثِفالها وتلقَحْ كِشافًا ثمّ تُنْتَجْ فتتئِم
فتُنْتَج لكم غلمانَ أشأم كلُّهم كـأحمرِ عادٍ ثمّ ترُضع فتَفْطِم
فتُغْلِلْ لكم ما لا تُغِلّ لأهلـها قرًى بالعراق من قَفيزٍ ودِرْهم (١٤:ص ١٨-٢١)

ونجد زهيرًا في همزيّة له يحاور نفسه لائمًا لها، ومقلّبًا الأمر من وجوه متعدّدة، وسبب ذلك أنّه قد هجا بني عُلَيْم ثمّ ندم على ذلك أشدّ النّدم، حتّى إنّه قال :" ما خرجت في ليلة ظلماء إلا خشيت أن يصيبني الله بعاقبة لهجائي قومًا ظلمتهم" (١٤: ص ٥٦) ، ويقول كذلك:" إنّي والله لقد عجلت إذ فعلت، وايم الله لا أهجو أهل بيت من العرب أبدًا"(١٤ : ص٨٥) ، ومطلع هذه الهمزيّة :

عفا من آل فاطمةَ الجِواء فيُمْنٌ فالقَوادمُ فالحِساءُ (١٤:ص ٥٦)

فزهير في هذه القصيدة يعرض على بني عُلَيْم أمورًا يحاورهم فيها :

وإمّا أن يقول بنو مَصادٍ إليكم إنّنـا قـومٌ بَـراءُ
وإمّا أن يقولوا قد أبَيْنا وشرُّ مَواطِنِ الحَسَبِ الإباءُ
وإمّا أن يقولوا قد وَفَيْنا بذمّتنا وعادَتُنا الوفاءُ (١٤ :ص ٧٤-

(٧٥

ثمّ يعلن أنّ الحقّ يتمّ بأحد أمور ثلاثة : رجل يحكم بينهم، أو انكشاف الأمر وانجلاؤه، أو يمين، فيقول :

فإنّ الحقَّ مقطعُه ثـلاثٌ يمينٌ أو نِـفارٌ أو جِلاء
فذالكُمُ مقاطع كلّ حقّ ثلاثٌ كلّهنّ لكم شفاءُ (١٤ :ص

(٧٥

٢- الحوار مع المرأة

ومن أصناف الآخر الّذين حاورهم العربيّ الجاهليّ المرأة، فقد وجدنا حوارًا مع الابنة، فقد استمع إليها وحاورها، ولنا في النّصّ الآتي خير دليل :" قال أبو عليّ : وحدّثنا أبو بكر قال : حدّثنا سعيد ابن هارون قال : حدّثني شيخ من أهل الكوفة عن عبد الملك بن نوفل بن مُساحق أخي بني عامر بن لؤيّ قال : قالت هند لأبيها عتبة بن ربيعة : إنّي امرأة ملكتُ أمري فلا تزوّجني رجلا حتّى تعرضه عليّ، قال : لك ذاك، فقال لها ذات يوم : إنّه قد خطبك رجلان من قومك ولست مسمّيًا واحدًا منهما حتّى أصفه لك، أمّا الأوّل : ففي الشّرف الصّميم، والحسب الكريم، تخالين به هَوَجًا من غفلته، وذلك إسجاح من شيمته، حسن الصّحابة، سريع الإجابة، إن تابعتِه تبعك، وإن مِلْتِ كان معك، تقضين عليه في ماله، وتكتفين برأيك عن مشورته. وأمّا الآخر:ففي الحسب الحسيب، والرّأي الأريب، بدر أرومته، وعزّ عشيرته، يؤدّب أهله ولا يؤدّبونه، إن اتّبعوه أسهل بهم، وإن جانبوه توعّر عليهم، شديد الغَيْرة، سريع الطِّيْرة، صعب حجاب القبّة، إن حاجّ فغير منزور، وإن نوزع فغير مقهور، وقد بيّنت لك كليْهما. فقالت : أمّا الأوّل، فسيّد مضياع لكريمته مُواتٍ لها فيما عسى إن تَعْتَصْ أن تلين بعد إبائها، وتضيع تحت خبائها ؛ إن جاءته بولد أحمقت، وإن أنجبت فَعَنْ خطإٍ ما أنجبت، اطْو ذكر هذا عنّي ولا تسمّه لي، وأمّا الآخر فبعل الحرّة الكريمة، إنّي لأخلاق هذا لوامقة، وإنّي له لموافقة، وإنّي لآخذه بأدب البعل مع لزوم قُبّتي، وقلّة تلفّتي، وإنّ السّليل بيني وبينه لحَرًى أن يكون المُدافع عن حريم عشيرته، الذّائد عن كتيبتها، المُحامي عن حقيقتها، المثبّت لأرومتها، غير مُواكل ولا زُمَّيْل عند

صعصعة الحروب. قال : ذاك أبو سفيان بن حرب، قالت : فزوّجه ولا تُلْق إلقاء السَّلِس،ولا تَسُمْه سَوْم الضَّرِس، ثمّ استخر الله في السّماء، يَخِرْ لك في القضاء" (٢٣ :ج ٢ : ص١٠٤-١٠٥).

فلو تأمّلنا هذا النّصّ، ألفينا هذه المحاورة بين عتبة بن ربيعة وابنته هند تنضح بالحرّيّة، فإذا أريد" للحوار أن ينتهي إلى نتيجة منطقيّة يسلّم بها الطّرفان، فلا بدّ أن يملك كلّ منهما حرّيّة الحركة الفكريّة الّتي تحقّق له الثّقة بشخصيّته المستقلّة، بحيث لا يكون واقعًا تحت هيمنة الإرهاب الفكريّ والنّفسيّ الّذي يشعر معه بالانسحاق أمام شخصيّة الطّرف الآخر، لما يحسّ به في أعماقه من العظمة المطلقة الّتي يملكها الآخر" (٢٢ :ص ٣٦).

وقد لاحظنا أنّ هندًا ملكت الجرأة والثّقة لتحاور والدها في قضيّة زواجها، ولو لم تكن تتوافر فيها هذه الجرأة والثّقة، لأذابت شخصيّتها أمامه، ولكانت فتاة خاضعة راضية بما يملي عليها من رغباته ؛ لأنّه هو الطّرف المهيمن والمسيطر.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هندًا قد اقتحمت ما يظنّ أنّه الممنوع والمحظور، فحاورت أباها في أمر طبيعيّ عاديّ، وهذا ينبىء أنّ العربيّ كان في الجاهليّة ذا عقليّة متفتّحة، ويستطيع أن يقيم حوارًا فيما يظنّ – كذلك- أنّه الممنوع والمحظور" فوجود بعض الموضوعات المحظورة والمحرّمة على ساحات الحوار، حيث لا يسمح بطرحها ولا مناقشتها ولا حتّى الاقتراب منها، يحوّل ندوات الحوار ومنتدياته إلى مخافر تدار بعقليّات أمنيّة، وليس علميّة ولا موضوعيّة، الأمر الّذي يتناقض ابتداءً مع الشّروط الموضوعيّة والضّروريّة المطلوب توفيرها لإنجاح الحوار" (٢٧ : ص٢٥) .

ولو تدبّرنا موقف عتبة بن ربيعة، فإنّنا نجده في أرقى درجات الرّقيّ فقد قال لها بعد أن أحسن الإصغاء إليها :" لك ذاك" ولم يزد، وهذا يدلّ على قريحة فذّة، ونفس رضيّة، إذ لم يلجأ إلى تعنيفها أو الاستهزاء بها، بل احترمها أشدّ الاحترام، بدليل أنّه ذكر لها ذات يوم أوصاف رجليْن خطباها، وترك لها حرّيّة الاختيار، فمن أوجب شروط الحوار مع الآخر الاحترام المتبادل وعدم السّخرية والاستهانة به" كما أنّه يجب

تجنّب الفحش في الكلام، واللجوء إلى السّباب والشّتائم في الحوار، فهذا مُنافٍ للأدب العامّ ولأدب الحوار بخاصّة، وبعيد من سموّ النّفس وكرم الخلق، وهو مذموم عقلا وشرعًا وعرفًا، أمّا العقل السّليم، فإنّه لا يرضى بما يهبط بمستوى الإنسانيّة إلى تناول النّاس بالشّتم والسّبّ والألفاظ المهينة" (١٠ :ص ٤٦-٤٧).

كما أنّنا نلحظ من موقف عتبة بن ربيعة عفّة اللسان، فمن" أدب الحديث ألا يتجاوز المتكلّم في مدح ولا يسرف في ذمّ، ومن هنا، فإنّ على المحاور ألا يبالغ في الذّمّ، فهو طريق الشّرّ والرّذيلة، ولا يسرف في المدح والثّناء ؛ لأنّ المبالغة فيه ملق ومهانة" (٢٧ :ص ٨١).

والشّاعر الجاهليّ يحاور زوجه، فحاتم الطّائيّ يقيم حوارًا بينه وبين زوجه العاذلة الّتي لا تنفكّ تعذله وتلومه في كرمه المتعاظم، لكنّه يردّ عليها بالحوار النّافع، فهو رجل اصطنع عادة نبيلة، ويريد أن يظلّ على هذه العادة، فيقول :

وقائلة : أهلكتَ بالجودِ مالَنا ونفسَك، حتّى ضرّ نفسَك جودُها
فقلت : دعيني، إنّما تلك عادتي لكلّ كريمٍ عادةٌ يستعيدُها (١٨ :ص ٤٤)

ويتّخذ في محاورته إيّاها الإقناع والحجّة سبيلا،فهو صاحب عادة، وإهلاكه المال حافظ له ولعرضه، وهو يردّ بأفعاله هذه ألسنة النّاس عنه، ثمّ يسألها إن رأت رجلا بخيلا حافظًا لماله قد خلّد في هذه الدّنيا، فكلّ إلى زوال، ويبيّن لها أنّه يصبح سيّدًا على سادات العشيرة، ويذود عنهم ويحامي بهذه العادة الكريمة، فيقول :

وعاذلة هبّت بليل تلومُني وقد غاب عَيّوق الثّريّا، فعَرَّدا
تلوم على إعطائِيَ المالَ ضِلّةً إذا ضنَّ بالمالِ البخيلُ وصَرَّدا
تقول:ألا أمسكْ عليكَ فإنّني أرى المال،عند المُمْسكين، مُعَبَّدا
ذريني يكنْ مالي لعرضيَ جُنّةً يقي المالُ عِرضي،قبل أن يتبدّدا
أريني جوادًا مات هَزْلا لعلّني أرى ما ترَيْن، أو بخيلا مخلّدا
أَسوّدُ ساداتِ العشيرة عارفًا ومن دون قومي في الشّدائد مِذْوَدا
وألْفى، لأعراض العشيرة حافظًا وحقِّهِمُ، حتّى أكون المُسَوَّدا
(١٨ :ص ٤٠-٤١)

إنّ حاتم الطّائيّ بمحاورته هذه يحاول أن يخلّد ذكره بعد وفاته، كما فعل عروة بن الورد، إذ إنّه يعاني مع زوجه ما عانى حاتم مع زوجه، ويريد أن يظلّ له ذكر باق في النّاس، فيقول :

أقلّي عليّ اللوم يا ابنةَ منذِر ونامي وإن لم تشتهي النّوم فاسهري
ذريني ونفسي أمَّ حسّانَ إنّني بها قبل ألا أملكَ الأمرَ مشتري
أحاديثَ تبقى والفتى غيرُ خالد إذا هو أمسى هامةً فوق صَيّر
(٢٤ :ج ٢ : ص٥٧٩)

ولو عدنا إلى محاورة حاتم الطّائيّ زوجه، وجدناه رفيقًا بها يحاورها باحترام ومودّة، فلم يقمعها ولم يعنّفها، ولم يلجأ إلى السّخرية من كلامها، بل جنح إلى اعتماد العقل والمنطق" ولا شكّ أنّ الحوار الّذي يعتمد على الحجّة الواضحة والدّليل المنطقيّ القويّ سيؤدّي في النّهاية إلى الحرّيّة في التّفكير، والتّخلّص من التّعصّب والانحياز...ومن هنا،فإنّه لا بدّ أن يتّسم الحوار بتقديم الفكرة والتّدليل عليها، أو ما يتعلّق بقبول ما يطرحه الطّرف الآخر ما دام أنّه قد وصل إليها بالمنطق السّليم والحجّة القويّة" (٢٧ :ص ٥٨-٥٩) .

ونرى حاتم الطّائيّ كذلك قد اتّصف بصفة كريمة في أصول المحاورة، وهي إنصاف المحاوَر، فقد ذكر في الأبيات السّابقة رأيها ووجهة نظرها" لأنّ الأمر المهمّ في الحوار هو إبراز حقّ الخصم وإنصافه حتّى لا تنقلب المحاورة إلى مكابرة" (٢٧: ص ٥٨-٥٩)، ثمّ إنّ حاتمًا قد تجرّد من الأفكار السابقة ومن إيمانه بالكرم والجود، وسار في المحاورة مع زوجه بالمنطق السّليم، فالأصل" في المحاوِر أن يكون متجرّدًا عن المؤثّرات لضمان إنصاف الطّرف الآخر، ذلك أنّ المحاورة المنطقيّة السّليمة تقتضي أن يتجرّد كلّ من الطّرفيْن أثناء المحاورة،افتراضًا، من عقيدته ومن انتمائه وأيّ شيء يؤثّر على حياده فيما يتعلّق بموضوع المحاورة" (٢٧ : ص٦١).

وكان حاتم الطّائيّ في هذه المحاورة حاميًا لزوجه، فلم يسىء إليها ؛ لأنّ في ذلك ظلمًا لها وتجاوزًا على أفكارها وطروحاتها، بل كان أسلوبه قائمًا على الإقناع دون إهانة لها (٢٧ : ص٦١-٦٢)،" وقد وجد في الحوار وسيلته لبسط فلسفة الكرم الّتي اعتنقها وآمن بها، حتّى

صارت طبيعة فيه، وغريزة لا تتخلّف عنه، فللمال في مذهبه سبيل، وللبذل في نظره مبرّر، وكلّ امرىء جارٍ على ما تعوّدا" (٢١: ص١٦٣).

لقد استطاع حاتم الطّائيّ أن يبسط قضيّة الكرم ويدافع عنها مستعينًا بالحوار، فهو" حريص على التّمسّك باللغة الحواريّة الّتي تفسح أمامه مجالا لطرح فلسفته والاستدلال عليها، هذه الفلسفة الّتي لا يملّ من ترديدها وبسطها على لائميه، وكأنّ الكرم يصل عنده إلى درجة التّمرّد على الثّروة وتبديدها، من أجل غاية يصبو إلى تحقيقها، وهي حسن الأُحدوثة، وخلود الذّكر بعد الممات" (٢١ :ص ١٦٦).

٣- الحوار مع الملوك

استطاع الشّاعر الجاهليّ بفطرته النّقيّة أن يتواصل مع الملوك، وأن يعرض قضيّته بحوار هادىء، وقد وجدنا علقمة بن عَبَدَة الفحل التّميميّ يتوجّه على رأس وفد من قومه إلى الحارث بن جبلة بن أبي شمر الغسّانيّ ليشفع في أخيه شأس، وقد أنشده قصيدته البائيّة الّتي مطلعها :

طَحا بك قلبٌ في الحسان طَروبُ بُعَيْدَ الشّباب عصرَ حانَ مشيب (١٧ :ص ٣٩١).

وفي هذه القصيدة نجده محاورًا فذًّا، إذ كان واضح الغاية في ذهابه إلى هذا الملك، فاختار الأسلوب الأمثل الّذي يعتمد" اللين والمحبّة...وسيلة للوصول إلى الهدف، وهذه الطّريقة تعتمد الكلمات الطّيّبة المرنة الّتي تقرّب الأفكار وتعمل على توحيد المفاهيم بعيدًا عن العنف والشّدّة" (٢٧ :ص ٧٢) فيقول :

إلى الحارث الوهّاب أعملْت ناقتي لكَلْكَلها والقُصْرَيَيْن وَجيب
إليك أبيتَ اللعنَ كــان وجيفُها بمشتبِهاتٍ هولُهنّ مَهيب
(١٧:ص ٣٩٢)

فهو يذكر اسمه صراحة من غير ألفاظ التّبجيل، وفي هذا تكريم له وتعظيم، إذ إنّه قد وجّه السّفر إليه بناقته الّتي أضناها الكلل والإعياء، ثمّ يخاطبه بتحيّتهم المخصوصة" أبيت اللعن" وهذه قضيّة مهمّة في معرفة ثقافة الآخر ولغته، إذ حيّاه بما يعرف ويفهم، ليدلّ على أنّه مطّلع على معارفه وثقافته.

وقد جرت كتب أدب السّياسة على إحسان مخاطبة الملوك، فيقول القلقشنديّ: "قال محمّد ابن إبراهيم الشّيبانيّ : إن احتجت إلى مخاطبة الملوك والوزراء والعلماء والكتّاب والأدباء والخطباء وأوساط النّاس وسوقتهم، فخاطب كلا منهم على قدر أبّهته وجلالته وعلوّه وارتفاعه وفطنته وانتباهه. ولكلّ طبقة من هذه الطّبقات معانٍ ومذاهب يجب عليك أن ترعاها في مراسلتك إيّاهم في كتبك، وتزن كلامك في مخاطبتهم بميزانه، وتعطيه قسمته، وتوفّيه نصيبه، فإنّه متى أهملت ذلك وأضعته، لم آمن عليك أن تعدل بهم عن طريقتهم، وتسلك بهم غير مسلكهم، وتجري شعاع بلاغتك في غير مجراه، وتنظم جوهر كلامك في غير سلكه، فلا تعتدّ بالمعنى الجزل ما لم تكسه لفظًا مختلفًا على قدر المكتوب إليه، فإنّ إلباسك المعنى-وإن صحّ إذا أشرب-لفظًا لم تجر به عادة المكتوب إليه تهجين للمعنى، وإخلال لقدر المكتوب إليه، وظلم يلحقه، ونقص ممّا يجب له، كما أنّ في اتّباع متعارَفهم، وما انتشرت به عادتهم، وجرت به سنّتهم، قطعًا لعذرهم، وخروجًا عن حقّهم، وبلوغًا إلى غاية مرادهم، وإسقاطًا لحجّة أدبهم" (٦ :ص ٢٩١-٢٩٢).

وقد بلغ ذكر الحارث الغسّانيّ عنان السّماء، حتّى لكأنّ الفرقديْن يعرفان مكانه، إذ اهتدى علقمة بهما للوصول إليه، وهذا كلّه لترقيق قلبه وتأليف نفسه وشرح صدره، فيقول :

هَداني إليكَ الفَرْقدان ولاحِبٌ له فوق أصْواء المِتان عُلوب (١٧ : ص٣٩٣)

ويذكّره بعض الحادثات السّابقات معه ليستميل فؤاده، فقد كان يسدي إليه النّصيحة كما أسداها لغيره من الملوك، ولكنّه لم يجد أذنًا مصغية عندهم سوى الحارث، ثمّ إنّه فارس مقدام شهم، لولاه لهلك القوم، وهو يجود بنفسه الشّمّاء الأبيّة، فيقول :

فلا تحرمَنّي نائلا عن جَنـابة فإنّي امرؤ وسْطَ القِباب غريب

وأنت امرؤ أفضت إليك أمانتي وقبلك ربّتني، فضعتُ، رَبوب

فوالله، لولا فارسُ الجَوْن منهمُ لآبوا خزايا، والإيابُ حبيب
تجود بنفسٍ لا يجادُ بمثلـها فأنت بها عند اللقاء خصيب
(١٧ :ص ٣٩٤-٣٩٥)

والحارث الغسّانيّ يصنع الخير ويرسله في الأغوار والأنجاد، ثمّ يلتمس إليه إطلاق سراح أخيه شأس، ويغلق قصيدته بأنّ أحدًا من النّاس لا يشبهه سوى أسيره، فهو يُعِزّ الأسير ولا يذلّه، وعلينا أن نلاحظ رفعة الأسلوب ورقيّ الطّريقة المثلى في الوصول إلى قلب هذا الملك، حين جعل الأسير في حسن المعاملة بمنزلة الملك،

وأنت الّذي آثارُه في عـدوّه من البؤس والنّعمى لهنّ نُدوب
وفي كلّ حيّ قد خبطت بنعمة فحُقّ لشأسٍ من نداك ذَنوب
وما مثلُه في النّاسِ إلا أسيرُه مُدانٍ، ولا دانٍ لذاك قريب
(١٧ : ص ٣٩٦)

وينبغي التّنبّه على أنّ الملوك قلّما يتكلّمون، فقد أصغى إليه وهو ينشد قصيدته، وأمر بعد هذا الحوار الطّويل الّذي ينضح بحسن التّأتّي إلى الملك، بإطلاق شأس وسائر أسرى بني تميم.

ولم يفت علقمة أن يستخدم اللغة القويّة بجانب الأسلوب الأمثل، فقد أحسن اختيار مفرداته وأجاد في انتقاء معجمه اللفظيّ، وفق مقتضى مقام الملك، المعدّ" إعدادًا دقيقًا للتّعبير عن الفكرة وبيان الحقيقة"(٢٧ : ص٧١)، فإذا" استخدم المحاور اللغة الواضحة، فإنّ ذلك سيوصله إلى الكلام الحسن الّذي يخدم الحقيقة دون لبس ولا غموض، وقد أوصى بعض الحكماء بألا ينطق الإنسان إلا بما يفيده أو يفيد الآخرين، أو أن يمتنع عن الكلام" (٢٧ :ص ٧١).

ويبدو أنّ علقمة قد عكف على إعداد قصيدته الإعداد الباذخ اللائق بمحاورة الملك، إذ كان موضوع القصيدة هو الوساطة والشّفاعة لإخراج أخيه من الأسر، فبيّن أنّه صاحب خبرة بعد ما غزاه الشّيب، وليس الخبير شبيهًا للمغمّر، فله خبرة واسعة بالنّساء، واختار ناقة لها تجارب في

الأسفار والدّروب الصّعبة، والبقرة الوحشيّة بارعة في التّخلّص من سهام الصّائدين، فيقول:

فلا تَعْدلي بيني وبينَ مُـغَمَّر سقتْك رَوايا المُزْنِ حين تَصوب

فإن تسألوني بالنّسـاء فإنّـني خبـيرٌ بأَدْواء النّـساء طبيب

إذا شاب رأس المرء أو قلّ ماله فليس لـه في ودّهنّ نصيب

يردن ثراءَ المال حيـث علمنه وشرخ الشّباب عندهنّ عجيب

ويقول:

فدعْها وسلِّ الهمَّ عنك بجَسْرَة كهمّك، فيها بالرِّداف خَبيب

وتصبح عن غبِّ السُّرى وكأنّها مولَّـعة تخشى القنيصَ شَبوب

ويقول:

تعفَّقَ بالأَرْطى لهـا وأَرادَهـا رجالٌ فبَذَّت نَبْلَهم وكَلِيب

(١٧ :ص ٣٩٢-٣٩٣)

كما أنّ علقمة عبّر عن قضيّته بأرقى درجات التّعبير، وهي الشّعر الّذي – كما ذكرنا في بدء البحث – هو خير وسيلة لإيصال الفِكَر ؛ لأنّه أوقع في النّفوس، وأثبت في الأفئدة.

ونجد نظير حال علقمة عند النّابغة الذّبيانيّ في اعتذاريّاته (١٢:ص ٢٠-٢٨، ٧٢-٧٤)، فقد أحسن محاورة النّعمان - كما فعل علقمة – وقدّم بين يديه اللغة السّمحة،

أتاني – أبَيْتَ اللَعْنَ - أنّك لمتَني وتلكَ الّتي تَسْتَكُّ منها المَسامِعُ (١٢:ص ٣٤)

أتاني – أبَيْتَ اللَعْنَ - أنّك لمتَني وتلكَ الّتي أهْتَمُّ منها وأَنْصَبُ (١٢:ص ٧٢)

فحين ندقّق النّظر في صيغة"أبيت اللعن" نجد أنّها" تعدّ علاقة نسقيّة توحي بطبيعة التّراتب الطّبقيّ hierarchy class في المجتمع الجاهليّ، فهذه التّحيّة خصيصة كلاميّة لا تقال إلا للملوك، لذا فإنّنا نلحظ النّابغة يدور في فلك السّلطة السّياسيّة ويحاورها ببضاعته الفكريّة، ويجيز لنفسه بأن يكون مؤهّلا، من خلال أدواته الثّقافيّة، لترسيخ القيم الثّقافيّة الّتي يؤمن بها خدمة لمصالحه وهو يواجه النّموذج السّلطويّ" (٢٠ :ص ٢٧)، ثمّ يخاطبه بالعقل والحجّة، فهو حافظ للعهد والودّ، وإنّما سعى به الوشاة والسّعاة، وكذبوا عليه ترّهات وأباطيل، ولم يكن لمثله أن يقابل بالإحسان إساءة حتّى لو قيّد بالأصفادِ ورسف بالأغلال،

أتاكَ امرُؤٌ مُسْتَبْطِنٌ ليَ بِغْضَةً لـه مـنْ عدوٍ مثل ذلك شافعُ

أتاكَ بقول هَلْهَلِ النَّسْجِ كاذِبٍ ولم يأتِ بالحقِّ الّذي هو ناصعُ

أتاكَ بقول لم أكن لأقولـه ولو كُبلت في ساعديَّ الجَوامِعُ

(١٢: ص ٣٥)

ويتساءل النّابغة : كيف لي أن أجحدك وأجحد نعمك، وأنت تستطيع أن تنالني، فلك دولة وسطوة، وإنّما مثلك معي كمثل الليل الّذي يلبس كلّ شيء، وكلّ شيء يسكن فيه،

فإنّك كالليل الّذي هو مدركي وإن خلتُ أنّ المُنتَأى عنك واسع

(١٢: ص ٣٨)

ثمّ إنّ النّابغة يصرّ على الحوار وتقديم الدّليل على براءته، بأنّ ما قيل في حقّه كذب صراح، وإن" لم تصبر أيّها الملك للأخ والصّديق على فساد يكون منه، لم تبق لنفسك أخًا، إذ لا يخلو الإنسان من أن تكون فيه خصلة غير مرضية، وضرب قوله : أيّ الرّجال المهذّب ؟ مثلا لذلك" (١٢ : ص١٦٦)فيقول :

لئن كنتَ قد بُلّغتَ عنّي خيانةً لمُبْـلغُك الواشي أغشُّ وأكذب

ولكنَّني كنتُ امرَأً ليَ جانبٌ من الأرض فيه مُستَرادٌ ومذهب

ملوكٌ وإخوانٌ إذا ما أتيتُهم أُحكَّم في أموالهم وأُقرَّب
كفعلك في قوم أراك اصطنعتَهم فلم ترهم في شكر ذلك أذنبوا
ولستَ بمستبق أخًا لا تلمّه على شَعَث، أيّ الرّجال المهذّب؟
(١٢: ص ٧٢،٧٤)

فقد بيّن النّابغة أنّ ذهابه إلى الغساسنة بعد غضب النّعمان عليه لم يكن أمرًا يجلب السّخط، ذلك أنّ له عندهم مكانة ومنزلة، وحاله في ذلك حال آخرين يأتون النّعمان فينالون منه الحظوة والتّكريم.

ونستطيع القول بعد استعراضنا لمبحث محاورة الشّعراء للملوك بأنّ الحوار الشّعريّ"توظيف عقلانيّ ذكيّ لبلاغة الكلمة وسلطة الإضمار النّسقيّ، قصد تأسيس الذّات الشّعريّة الرّافضة لكلّ محاولات الاستقطاب السّلطويّ، والثّائرة كذلك على كلّ محاولات تسليع الفنّ أو تأصيل ثقافة الاستجداء من قبل الآخر/السّلطة..." (٢٠: ص ٦٢).

٤- الحوار مع الصّاحب

نجد في الشّعر الجاهليّ ضربيْن من الحوار مع الصّاحب، هما:

الحوار مع الصّاحب الحقيقيّ، إذ يؤكّد الشّاعر الجاهليّ ضرورة وجود صاحب يحاوره ويفضي إليه بمكنونات نفسه ، ويبثّه شكاته ويناجيه بقضاياه وهمومه، فهذا الأعشى يحاور صحبه الشّاربين في سياق حديثه عن المطر، فيقول:

يا من يرى عـــارضًا قد بتّ أرقُبُه كأنّما البرق في حافاتِه الشُّعَل
لـــــم يلهني اللهوُ عنه حين أرقبه ولا اللذاذة من كأس ولا الكسل
فقلت للشَّرْب في دُرْنى وقد ثَمِلوا: شيموا، وكيف يَشيمُ الشّارب الثَّمِل
برقًـــا يضيء على الأجزاع مسقِطه وبالخَبِيَّة منه عارض هَطِل
قـالوا : نِمارٌ فبَطْنُ الخال جادَهُما فالعَسْجَديّة فالأَبْلاءُ فالرّجَل
فـالسَّفْحُ يـجـري فـخِنْزيـرٌ فبُرْقَتُه حتّى تدافع منه الرَّبْوُ فالجَبَل

(٣: ص٥٧-٥٨)

فالأعشى في هذه الأبيات يتوكّأ على الحوار مع صحبه، ولم يستطع أن ينساه حتّى في أدقّ الأوقات، فهو ينتظر المطر، ويقيم بينه وبينهم محاورة في ضرورة النّظر إليه، وتعرّف مساقطه، وهم يردّون عليه مع أنّهم في سكرهم يعمهون، فلم يقووْا جميعا على التّخلّي عن الحوار، ولم يُلْهِ الأعشى شربُه وسكرُه، بل نهد إلى التّحاور مع أصدقائه وطفقوا يفصّلون أسماء الأماكن الّتي يتوقّعون نزول هذا العارض الممطر عليها.

ومثل هذا كذلك في قوله:

فقلنا له هذه هاتها بأَدْماءَ في حَبْل مُقْتادها
فقال: تزيدونني تسعةً وليست بعَدْل لأندادها
فقلت لمِنْصَفِنا أعطِه فلمّا رأى حَضْرَ شُهّادها
أضاء مِظلّتَه بالسِّرا ج والليلُ غامرُ جُدّادِها

(٣: ص ٧٠-٧١)

أمّا الضّرب الآخر فهو الحوار مع الصّاحب الوهميّ، وهذا كثير في مطالع القصائد الجاهليّة، إذ يرد ذكر صاحب أو اثنين أو أكثر يكونون حقيقيّين أو متوهّمين من اصطناع الشّاعر نفسه، يخاطبهم ويستوقفهم من أجل أن يشتركوا معه في همّه، كما فعل امرؤ القيس في مطلع معلّقته الّتي فيها يقول:

قِفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسِقط اللِوى بين الدَّخول فحومل
فتوضحَ فالمِقراةِ لم يعفُ رسمُها لما نسجتها من جنوب وشمأل
وقوفًا بها صحبي عليّ مطيَّهم يقولون: لا تهلك أسًى وتجمّل

(٤: ١١-١٣).

ومثل هذا عند زهير:

قف بالدّيار الّتي لم يعفُها القِدَمُ بلى وغيّرها الأرْواحُ والدِّيَمُ

(١٤: ١٤٥)

النتائج

وبعد، فقد انتهى الباحثان إلى النّتائج الآتية :

١-استطاع العربيّ في الجاهليّة أن يستثمر أسلوب الحوار وطاقاته في معظم قضاياه، فحقّق أهدافه وحصّل غاياته بالأسلوب الحواريّ الرّشيق، على أنّ هذا لا يعني أنّ العرب كلّهم قد التقوْا على قلب رجل واحد في اتّباع الحوار،فقد وجدنا من تنكّبوا هذه السّبيل، وساروا في غير هذه الطّريق، وكانوا جفاة غلاظًا، لكنّنا هدفنا إلى إثبات أنّ الحوار سبيل واضحة عند كثير من أهل الجاهليّة، وهو من الأمور الّتي حافظ عليها شرعنا الحنيف وأكّدها القرآن الكريم والسّنّة المطهّرة في أفعال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأقواله، والتزمها الصّحابة الكرام.

٢-بيّن البحث أنّه بالحوار والإقناع لا بالعنف والقمع تواصل العربيّ مع الآخر، فهذا الآخر – كما وجدنا في هذه النّماذج القليلة الدّالّة الّتي ينضح الأدب الجاهليّ شعره ونثره بأمثالها – هو النّفس الدّاخليّة في الحوار الدّاخليّ، وهو المرأة، وهو الملك، ولم نصرف حديثنا إلى الحوار الّذي تفيض به القصائد الجاهليّة مع عناصر البيئة من حول الشّاعر من إنسان وحيوان وجماد، بل كان همّنا هو ما في هذا الحوار من حجّة ودليل وإقناع واقتناع.

٣-تبيّن لنا أنّ الأمّة العربيّة قد أصّلت ثقافة الحوار والمناقشة وأثّلتها، فلسنا أمّة قمعيّة لا تؤمن بالآخر ولا تتعامل معه، بل نحن أمّة كان الحوار ديدننا، وقد جعلنا له مهادًا منذ الجاهليّة، فمثلا استطاع الصّحابة الكرام – وهم أبناء العصر الجاهليّ في المقام الأوّل – أن يبسطوا حجّتهم أمام النّجاشيّ بالحوار والإقناع، وأن يستميلوا قلبه، وأن يردّ عمرو بن العاص (إذ ذاك) خائبًا في وساطته، وأمثال هذا كثير.

٤-كان العربيّ في الجاهليّة على قدر واسع من الفهم واتّقاد القريحة، فلم يكن الحوار عنده مع الآخر علنيًّا، بل كان يحاور نفسه في قضاياها، وقد عبّر عن هذا فنّيًّا بالأدب: شعره ونثره، ومعلوم أنّ أرقى درجات التّعبير عمّا في النّفس أن تكون بالفنّ.

٥-لقد أضفنا في بحثنا هذا مادّة جديدة عن الحوار وقيمته، ولم نكتف بالإشارات الأدبيّة والفنّيّة، بل صرفنا جزءًا من معالجاتنا

للنّصوص لتحليلها وقراءتها وفق أدبيّات الحوار، ولعلّنا نكون قد وفّقنا في مسعانا هذا.

ويوصي الباحثان بما يأتي:

١-ضرورة الالتفات إلى العصر الجاهليّ بأنظار جديدة، وتأصيل ثقافة عصريّة عن هذا العصر، تنبع من قراءات محقّقة لأدب هذا العصر، فالأدب الجاهليّ:شعره ونثره زاخر بالأمثلة العلميّة البرّاقة الدّالّة على الشّأو الكبير الّذي وصل إليه العربيّ في الجاهليّة.

٢-لا بدّ للباحثين في العصر الجاهليّ أن يبدوا اهتمامًا بالنّثر الجاهليّ،فهو مبثوث في الكتب التّراثيّة المنشورة المعتبرة، لاحتواء هذا النّثر على نصوص فائقة بالمثل والأخلاق، وهي صعيد رحيب لاستجلاء صورة ذلك العصر الّذي حاف عليه بعض الدّارسين العرب والعجم، من القدماء والمحدثين.

٣-التّنبيه على إقامة الدّراسات الأدبيّة الّتي تتواشج مع علوم أخرى، إذ نحسب أنّ في هذا التّواشج إحداثًا لفهوم جديدة، وإغناء للنّصوص الأدبيّة، وكشفًا لما تكتنزه هذه النّصوص من قضايا.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

[١] إسبر ، أمين: *الحوار والحضارة العربيّة الإسلاميّة*، سورية، دمشق ، الأهالي للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى، ٢٠٠٣م.

[٢] الأسد ، ناصر الدّين: *نحن والآخر : صراع وحوار*، بيروت ، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، ، التّوزيع في الأردنّ : دار الفارس للنّشر والتّوزيع، عمّان، الطّبعة العربيّة الأولى، ١٩٩٧م،

[٣] الأعشى ، ميمون بن قيس : *الّديوان* ، شرح وتعليق محمّد محمّد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، المطبعة النّموذجيّة.

[٤] امرؤ القيس : *شرح الّديوان* ، قرأه ووضع فهارسه وعلّق عليه عمر الفجّاويّ، عمّان، الأردنّ ، وزارة الثّقافة، ٢٠٠٢م.

[٥] التّوحيديّ ، أبو حيّان:

أ) *الإمتاع والمؤانسة* ، وهو مجموع مسامرات في فنون شتّى حاضر بها الوزير أبا عبد الله العارض في نحو أربعين ليلة، صحّحه وضبطه وشرح غريبه أحمد أمين وأحمد الزّين، بيروت – لبنان، منشورات دار مكتبة الحياة.

ب) المقابسات، *تحقيق حسن السّندوبيّ، الكويت، دار سعاد الصّباح، ط : ٢ ، ١٩٩٢ م.*

[٦] حسين ، طه: *في الشّعر الجاهليّ* ، طبعة خاصّة، دار المدى للثّقافة والنّشر، ٢٠٠١م.

[٧] الحكيم ، توفيق : *فنّ الأدب* ، ، مكتبة الآداب، القاهرة، د.ت.

[٨] حلمي ، أمين : *الحوار الفكريّ في القرآن الكريم*، المناظرة والجدل والمحاجّة،دار النّهضة الإسلاميّة، الطّبعة الأولى، ١٩٩٧م – ١٩٩٨م.

[٩] خاتمي ، محمّد : *حوار الحضارات*، ترجمة سرمد الطّائيّ، دمشق، سورية، دار الفكر ، بيروت – لبنان، دار الفكر المعاصر، الطّبعة الأولى، ربيع الآخر ١٤٢٣هـ - تمّوز ٢٠٠٢م.

[١٠] الخيّاط ، عبد العزيز : *أدب الحوار*، سلسلة التّثقيف الشّبابيّ (٢٤) تصدرها وزارة الشّباب في المملكة الأردنّيّة الهاشميّة.
[١١] الدّجانيّ ، أحمد صدقي : *حوار ومطارحات*، القاهرة ، دار المستقبل العربيّ، الطّبعة الأولى ١٩٨٦م.
[١٢] الذّبيانيّ ، النّابغة *: الّديوان* ، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ، دار المعارف، الطّبعة الثّالثة،د.ت.
[١٣] الرّاغب الأصفهانيّ : أبو القاسم حسين بن محمّد*:محاضرات الأدباء ومحاورات الشّعراء والبلغاء*،بيروت –لبنان ، منشورات دار مكتبة الحياة.
[١٤] ابن أبي سُلمى ، زهير *: شرح الّديوان* ، صنعة الإمام أبي العبّاس أحمد بن يحيى بن زيد الشّيبانيّ ثعلب، القاهرة، مطبعة دار الكتب والوثائق القوميّة ، الطّبعة الثّالثة(١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م).
[١٥] شاكر ، محمود محمّد*: القوس العذراء*، ، د.ت.
[١٦] الشّيخلي ، عبد القادر *: ثقافة الحوار في الإسلام*، كتاب الرّياض، مؤسّسة اليمامة الصّحفيّة، الطّبعة الأولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م،.
[١٧] *الضّبّيّ ، المفضّل : المفضّليّات*، تحقيق وشرح أحمد محمّد شاكر وعبد السّلام محمّد هارون، بيروت – لبنان، الطّبعة السّادسة،د.ت.
[١٨] *الطّائيّ ، حاتم: ديوان* ، بيروت، دار صادر ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
[١٩] ابن الطّفيل ، عامر *: الّديوان* ، رواية أبي بكر محمّد بن القاسم الأنباريّ عن أبي العبّاس أحمد بن يحيى ثعلب، بيروت، دار صادر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
[٢٠] عليمات ، يوسف*: النّسق الثّقافيّ : قراءة في أنساق الشّعر العربيّ القديم*، ، عالم الكتب الحديث، ٢٠٠٩.
[٢١] عمارة ، السّيّد أحمد*: الحوار في القصيدة العربيّة إلى نهاية العصر الأمويّ*، طنطا ، الطّبعة الأولى، ١٩٩٣م – ١٤١٤هـ.
[٢٢] فضل الله ، محمّد حسين *: الحوار في القرآن : قواعده، أساليبه، معطياته*، بيروت ، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع، ط٣، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

[٢٣] القالي ، أبو عليّ إسماعيل بن القاسم البغداديّ : *الأمالي* ، بيروت – لبنان، دار الحديث للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الطّبعة الثّانية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م،.

[٢٤] القرشيّ ، أبو زيد محمّد بن أبي الخطّاب *: جمهرة أشعار العرب في الجاهليّة والإسلام*، ، حقّقه وعلّق عليه وزاد في شرحه محمّد عليّ الهاشميّ، المملكة العربيّة السّعوديّة،جامعة الملك محمّد بن سعود الإسلاميّة، ١٤٠١هـ _ ١٩٨١م.

[٢٥] القلقشنديّ ، أحمد بن عليّ ،(ت٨٢١هـ) : *صبح الأعشى في صناعة الإنشا*، ، شرحه وعلّق عليه وقابل نصوصه محمّد حسين شمس الدّين، بيروت – لبنان، دار الكتب العلميّة، الطّبعة الأولى : ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

[٢٦] مركز الرّاية للتّنمية الفكريّة *: حوار الثّقافات، مدخل لقراءة الآخر ونقد الذّات*، المملكة العربيّة السّعوديّة، وسورية، الطّبعة الأولى، ذو الحجّة ١٤٢٣هـ - شباط٢٠٠٣م، .

[٢٧] الهيتي ، عبد السّتّار *: الحوار، الذّات والآخر*، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة بدولة قطر، (كتاب الأمّة) ، الطّبعة الأولى، محرّم ١٤٢٥هـ، شباط آذار ٢٠٠٤م،.

[٢٨] يوسف ، حسني عبد الجليل*: النّفس في الشّعر الجاهليّ*، مكتبة الآداب، ١٩٨٩م.

The Culture of Dialogue with the Other: Samples from Pre-Islamic Literature

Omar Abdallah Ahmad Shehadeh Fajjawi, and Reem Farhan Odeh Maaita
1 Associate Professor, Arabic Department, Faculty of Arts, Hashemite University
Specialization : Pre-Islamic literature
2 Associate Professor, Humanities Department, Faculty of Engineering Technology
Al-Balqa Applied University, Specialization : Modern Linguistics and syntax and morphology
The Hashemite Kingdom of Jordan

Abstract. One of the prominent characteristics of the Arab in the pre-Islamic era is his awareness of the culture of dialogue. The Arab is a strong defender of his rights, usually converses with himself and the other. His dialogue with himself is a clear evidence of his attempt to see things from different perspectives. In addition, his dialogue with the other is an evidence of his tolerance with the other. The other can be his wife with whom he always talks, or his daughter to whom he listens together her complaints. One can also say that the other is his own camel with which he feels and teaches how to speak, just like what Al-Muthaqqeb Al-Abdi and ‘Antarah did.

The other can also be the kings whom he visits, as found in the travel literature of Al-Nabigha Al-Thubiani, ‘Alqamah bin ‘Abadah, and Al-Muthaqqeb Al-Abdi. The other can also be the trader in the market, as found in Al-Shammakh. Finally, the other can be everything around him, like the ruins and the night.

Through dialogue, the Arab was able to argue. God (Subhanahu wa Ta’ala) says in his holy Book"They are good in argument.” He also says:"You will know them from the way they speak” and His saying:"If they speak, you will listen to them.”

If we study the verses of the Holy Qur’an, we will find that many of these verses talk about dialogue and its various related issues, like argument and dispute, which logically indicates that Arabs were people who believe in dialogue and having different opinions. The Almighty God says:"Some of His many pieces of evidence are creating the skies, the earth, and your different languages and colors.” God makes difference a proof of his control over the whole universe, in which all ideas integrate, all opinions vary, thought strengthened, and arguments transcend. If this is how things are, the Almighty God revealed the Holy Qur’an to Arabs to challenge them. He will not challenge them with something that they do not understand.

Depending on these ideas, this study attempts to shed light on the culture of dialogue and its related issues in the pre-Islamic literature, both its prose and poetry. The study will cite different texts to prove its main argument and to emphasize what is revealed in the Holy Qur’an. The main aim of this study is to remove the accusation that Arabs in general, and Pre-Islamic Arabs in particular, are ignorant people. On the contrary, Arabs are those who emphasize the importance of the culture of dialogue with other people and with everything around them. Arabs are those who strengthen this culture and spread it among themselves. Islam came to emphasize this culture and complete it. Our proof for all those who deny this is the argument we have seen between the different tribes, its individuals, and chiefs. Another proof is the democracy (Shura) that our prophet Mohammad (peace be upon him) comes up with in Badr battle and other occasions. All this makes our response to those who accuse our nation with extremism, discrimination, and not tolerating the other.